العرب
الخميس 2020/01/09
السنة 42 العدد 11581

هل أنهى الثأر الإيراني لسليماني كابوس الحرب الكبرى

ارتياح أوروبي محفوف بريبة مما يخطط له ترامب

آمال أوروبية بإنهاء الأزمة

تباينت الرؤى والقراءات السياسية لما أقدمت عليه طهران في ما أسمته بالرد على مقتل قاسم سليماني بعد قصف قاعدتين في العراق. وفيما يذهب البعض إلى التأكيد على أن هذا الرد سيكون البداية الحقيقية لاندلاع الحرب العسكرية الكبرى في الشرق الأوسط، فإن هذه الخطوة قوبلت أيضا بنوع من الارتياح لدى قادة أوروبيين يعتبرون أن الأزمة قد تكون خرجت من عنق الزجاجة، لكن ينتابهم في الوقت نفسه توجسّ كبير ممّا يخطط له الرئيس الأميركي دونالد ترامب لكسر شوكة طهران.

باريس – تُبدي قيادات أوروبية ارتياحا إلى الأجواء التي توحي بأن الأزمة الأميركية الإيرانية قد تكون خرجت من عنق الزجاجة بعد إعلان إيران أنها ردّت على اغتيال الجنرال قاسم سليماني بقصف قاعدتين أميركيتين في العراق.

وبغضّ النظر عن ظروف هذا الرد وحيثياته والطريقة التي رتّب بها دوليا، فإن العواصم الأوروبية تعتبر أن كابوس الحرب الكبرى قد ابتعد نسبيا، إلا أنها تنظر من جديد بعين الريبة إلى الرئيس الأميركي دونالد ترامب، ما يزيد من الامتعاض الذي تكنّه أوروبا لهذا الرجل من دخوله البيت الأبيض.

ويسهل للمراقب أن يلاحظ أن الاتحاد الأوروبي سعى بصعوبة هذه المرة للحفاظ على مسافة واحدة بين واشنطن وطهران، وأن ما صدر عن العواصم الأوروبية أوحى بالقرب من الولايات المتحدة وتبرير قرارها بتصفية سليماني الذي وصف في أوروبا بأنه رجل خطير عمل على زعزعة الاستقرار في الشرق الأوسط والعالم. حتى أن الصحف البريطانية كشفت أن لندن كانت بصدد اغتياله قبل سنوات إلا أن تدخّل وزير الخارجية البريطاني آنذاك ديفيد ميليبند منع العملية لتعارضها مع المصالح العليا لبريطانيا.

غير أن أوروبا حافظت على خطوط تواصل مع إيران ساعية إلى نزع فتيل الانفجار، وربما متوسطة لإيجاد صيغة الرد المثلى التي تُرضي طهران ولا ترد عليه واشنطن.

وعلى الرغم من عدم وجود معلومات حتى الآن تكشف كواليس المداولات الدولية التي أفضت إلى واقعة الرد الصاروخي الإيراني ضد قاعدتي عين الأسد وأربيل الأميركيتين، إلا أن قنوات التواصل المفتوحة بين واشنطن وطهران، من خلال سلطنة عمان وسويسرا كما الاتصال الهاتفي لمدة ساعة الذي أجراه الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون مع نظيره الإيراني حسن روحاني، قد تكون قد رسمت خطوط خارطة طريق معقدة سيتم الكشف عن جوانب إضافية أخرى لها خلال الأيام المقبلة.

إلا أن الحدث أجّج غضبا داخل كواليس القرار في أوروبا. فالقرار الذي اتخذه الرئيس ترامب باغتيال سليماني اتخذ دون أي تشاور مع الحلفاء في أوروبا وحلف شمال الأطلسي ووضع العواصم الأوروبية أمام الأمر الواقع. وتزيد هذه المسألة من ملفات التأزم بين ضفتي الأطلسي منذ اتخاذ الرئيس الأميركي قراراته الشهيرة بالانسحاب من اتفاق باريس للمناخ والصفقة النووية الإيرانية أو فرض تعريفة على الصلب الأوروبي أو رفع جدران جمركية أمام منتجات أوروبية.

يعتبر الأوروبيون أن ترامب يلعب بأمنهم واستقرارهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من خلال قرارات كقتل سليماني من شأنها إشعال حرب مدمرة كبرى تدفع أوروبا ثمنا كبيرا لها بسبب القرب الجغرافي من المنطقة. ويرى الأوروبيون أن بلدانهم أُصيبت مباشرة بشظايا الإرهاب الذي انتشر في الشرق الأوسط، خصوصا منذ ظهور تنظيم داعش، وأُصيبت بشظايا الحرب في سوريا من خلال التدفق الصاعق للاجئين، وهو أمر هدّد الأركان السياسية لبلدان الاتحاد الأوروبي ورفع من أسهم التيارات الشعبوية العنصرية المهددة للإنجاز الديمقراطي الذي تحقق بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان واضحا أن الأوروبيين لن يتحيزوا لإيران على حساب حلفهم التاريخي مع الولايات المتحدة، لكنهم في نفس الوقت لن يقطعوا الحبل مع إيران ولن يذهبوا إلى الانخراط سريعا في حرب ترامب المحتملة ضد إيران. لكن ما امتلكته العواصم الأوروبية من معطيات من خطط أميركية جادّة بشأن احتمال الحرب، أخاف الأوروبيين الذين نقلوا تلك المخاوف إلى الجانب الإيراني بدقة.

> بعد إعلان إيران أنها قصفت قاعدتين أميركيتين في العراق، تعتقد بعض الدول الأوروبية أن الأزمة خرجت من عنق الزجاجة

ولطالما اعتبرت بريطانيا أنها أكثر الدول التي تمتلك قربا تاريخيا مع الولايات المتحدة. حتى أن لندن بعد البريكست صارت أقرب إلى واشنطن منها إلى جيرانها الأوروبيين، وأن مسارعة لندن إلى تحريك قطع عسكرية صوب المنطقة أوحى بجاهزية بريطانيا إلى الالتحاق سريعا بما تقرره واشنطن بشأن إيران. والظاهر أن تحذير وزير الخارجية البريطاني دومينيك راب من "حرب مدمرة" مقبلة إذا لم يتم خفض التصعيد متأسس على ما تملكه لندن من معطيات في هذا الصدد.

غير أن أوروبا التي أصدرت مواقف متشددة محذرة إيران من التخلي عن التزاماتها داخل الاتفاق النووي مطالبة طهران بعدم الرد ومفاقمة التأزم الحالي، وفق تصريحات وزير الخارجية الفرنسي جان إيف لودريان، استمرت في فتح أبواب أوروبا لإيران.

فقد دعا جوزيف بوريل، مسؤول السياسة الخارجية بالاتحاد الأوروبي، وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف إلى محادثات في بروكسل، وهو أمر اعتبر رد اعتبار للرجل الذي رفضت واشنطن منحه تأشيرة لزيارة الأمم المتحدة في نيويورك.

واللافت في الموقف الأوروبي ما دعت إليه المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل لعقد "اجتماع عمل" في وقت لاحق من في موسكو، على نحو بعث بإشارة واضحة إلى واشنطن أن زيارة موسكو في هذه الفترة هي أهم من زيارة واشنطن، وأن التعاون الأوروبي مع روسيا هو أكثر نجاعة من السعي إلى ترميم خطوط التنسيق المفقودة بين الحلفاء التاريخيين على ضفتي الأطلسي.

وينبغي ملاحظة الموقف الحاد الذي اتخذته القيادة الجديدة للديمقراطيين الاشتراكيين الألمان، شركاء ميركل في التحالف الحكومي، بمطالبة الولايات المتحدة بإزالة ترسانتها النووية من البلاد.

وعلى الرغم من أن مسؤولين بارزين آخرين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بمن فيهم رئيس البرلمان الأوروبي السابق مارتن شولز، قد أيدوا مثل هذه الخطوة في الماضي، إلا أن توقيت الطلب الأخير أكد على درجة عدم الارتياح الألماني بشأن مسار ترامب. حتى أن نوربرت والتر بورجان، أحد قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، قال الثلاثاء إن العلاقة بين الأطلسي "قد تغيرت بشكل جذري".

وكان بوريل، الذي كان وزيراً للخارجية الإسبانية قبل تولي حقيبة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي، قد وصف العام الماضي علاقة أوروبا بالولايات المتحدة على الشكل التالي "أينما نظرتم، هناك خلاف كامل بين الولايات المتحدة وأوروبا". "إنه طلاق في القيم".

ويتحدث مراقبون عن مشاعر كره تنتاب الأوروبيين حيال الرئيس ترامب، وهو أمر دفع سفير فرنسا السابق في الولايات المتحدة، جيرار أرود، إلى تحذير الأوروبيين من ألا يعميهم كرههم لترامب ويغفل عنهم القضايا الأساسية المطروحة. وأشار هذا الأسبوع إلى أن أوروبا لديها نفس المخاوف التي لدى الولايات المتحدة بشأن إيران، من دعمها للإرهاب إلى طموحاتها النووية. وقال إنه "بغض النظر عن رأينا في ترامب وموقفنا من اغتيال سليماني، فإن الحقيقة الأساسية التي تسبق إدانة الموقف الأميركي من الاتفاق النووي هو إدانة السلوك العدواني لإيران".

ولا يبدو أن الحدث الحالي قد أصلح من حال التوتر في علاقة واشنطن مع الأوروبيين. فحتى وزير الخارجية الأميركي مايك بومبيو لاحظ ذلك جيداً ورأى أنه "بصراحة، لم يكن الأوروبيون مساعدين كما كنت أتمنى أن يكونوا كذلك"، مضيفا أن "البريطانيين والفرنسيين والألمان يحتاجون جميعا إلى فهم أن ما فعلناه، ما فعله الأميركيون، أنقذوا الأرواح في أوروبا أيضا".

قراصنة العثمانيين بين «باشاغا» و«خيرالدين»

أردوغان الحالم بالأجداد يحول المعركة إلى ليبيا

محمد طعيمة
كاتب مصري

القاهرة – مع أولى ساعات 2020 "حرق" رجب طيب أردوغان ذراعه الليبي فتحي باشاغا، وزير الداخلية بحكومة الوفاق . باشاغا حذر خلال مؤتمر في تونس، الخميس 26 ديسمبر 2019، من أن "منطقة شمال أفريقيا بأكملها مستهدفة وليس طرابلس فقط، إذا سقطت طرابلس ستسقط تونس العاصمة والجزائر" في يد المحور العربي الذي يضم الجيش الوطني الليبي مدعوما من معظم شعبه ومصر والإمارات.

باشاغا الذي استنجد بعد ساعات من تصريحه بأردوغان لينقذ ميليشياته من تقدم تدريجي للجيش الليبي، لم ينتبه إلى أنه يحيي ذاكرة سقوط العواصم الثلاث التي ذكرها قبل 500 عام تحت الاحتلال العثماني، وقبلها الشام ومصر، ما أغرق الأمة العربية في "ثلاثة قرون من الجهل، عطلتها عن نهضة فكرية توازي ما شهدته أوروبا"، وفق تقدير طه حسين.

في اتصاله بجنود له يشاركون في احتلال وتتريك شرق سوريا مهنئا بالعام الجديد، حسب وكالة الأناضول، تعهد أردوغان بأن "يحقق جنودنا في المتوسط ملاحم بطولية كالتي حققها خيرالدين بربروس، سيواصلون كتابة الملاحم التي كتبها". بربروس، هو درة القرصنة البحرية العثمانية التي بدأت باحتلال الجزائر ثم طرابلس مختتما بتونس. ناقض أردوغان تحذير باشاغا.

نسخ تاريخي

قبل 500 عام، بدأ الزحف التركي من شمال شرق المتوسط، سوريا، وتدحرج مُنكّلا بباقي الشام حتى استقر في مصر معتمدا منذ بدايته على الاختراق والخيانة ومستغلا، دائما، ضعف الدولة. مدّ احتلاله لشمال أفريقيا حتى حدود مراكش بسلاح الجريمة البحرية التاريخية، القرصنة، مفتعلا شعارا مقدّسا يتستر به "الجهاد البحري".

بعد 500 عام، عدّل هدفه من الاحتلال المباشر للهيمنة. بدأ من سوريا بنفس مدرسة الخيانة، الإسلام السياسي بدلا من المماليك، تحت شعار مقدس مماثل، الجهاد. لم يستطع أن يكمل تدحرجه في باقي الشام لوجود كيان غربي/إسرائيل يفصلها عن مصر، وفشل في الأخيرة بعد أن أطاح شعبها وجيشها بحصان طروادته "الإخوان" في 30 يونيو. جنون عظمته منعه من التراجع، متوهما قدرته على استعادة شواطئ جنوب المتوسط، وداعما "الجهاد البحري" بنظير له بري، حالما بمد رايته من طرابلس/مصراتة إلى تونس ثم الجزائر، تماما كما فعل قبل 500 عام، وكما نشط ذاكرتنا القومية أردوغان وباشاغا معا.

في خطاب رسمي للأمم المتحدة ممهدا لمذكرة التفاهم مع فايز السراج، استخدم أردوغان تركيبة لغوية استحضرها من النشاط الأبرز لأسلافه "الوطن الأزرق"، يقصد به مياه المتوسط الزرقاء التي جالوا فيها قرصنة حتى ارتبطت بهم "مهنة القرصنة" في البحر الذي يتوسط العالم القديم.

يعود أقدم توثيق للقرصنة في البحر الأبيض للقرن الـ14 قبل الميلاد، وعرفتها شعوب الأناضول بعد 13 قرنا مهددة تجارة الإمبراطورية الرومانية في شرقه، واحتل قراصنتها قبرص وكريت، وظلوا لأربعة قرون نشطين في قرصنة سفن بحار المتوسط وإيجه والأسود ومرمرة وموانئها. وتتابعت سيطرة شعوب أوروبا على مهنة القرصنة لقرون، كانت عصورا وسطى بلا مركزية غربية.

قبل السفن العثمانية، لم تشارك شعوب الخارطة العربية في القرصنة، باستثناء المغاربة. فمن عام 824 إلى 961 سيطروا على جزيرة كريت ومنها نشطوا في كامل المتوسط، وفي عام 911، لم يستطع أسقف أربونة العودة إلى فرنسا لأن قراصنة "فرخشنيط" سيطروا على ممرات جبال الآلب. المغرب الذي كان أول دولة تعترف بالولايات المتحدة عام 1777، أصبح أول قوة تقرصن سفينة تتبع الجمهورية الأميركية الوليدة عام 1784.

نشاط القرصنة المغربي، من بين أسباب متعددة، حمى مراكش من الاجتياح التركي.

خيرالدين بربروس (1478 – 1546م) الذي صدّره أردوغان كرمز تاريخي، تروجه الرواية الرسمية لأنقرة كـ"مجاهد إسلامي" وبطل قومي تركي و"فاتح الجزائر" مرتين! وفق مذكراته، هو خضر بن يعقوب، ولد في جزيرة ميديلي اليونانية.

وتقول رواية إن بربروس من أسرة مسيحية واسمه الأصلي "خسرو"، والرواية تتفرع إلى روايات متعددة حول تحوله إلى "خيرالدين". منها أنه أسلم مع إخوته ليحتموا بالدولة الحفصية في تونس، ورواية أخرى تقول إنه ألباني الأصل. وتتمسك سردية أنقرة بأن أصوله تركية، وأن الأب استقر في الجزيرة اليونانية وتزوج منها.

اشتهر شقيقه عروج أوروبيّا بـ"باربروسا" أي "ذو اللحية الزعراء"، وحين قتل انتقل اللقب لخيرالدين، وقتل شقيقان لهما، إسحاق وإلياس، في معركتي قرصنة مختلفتين. وفي مذكراته يورد خيرالدين قصة "هوليوودية" عن هرب عروج من أسر قراصنة أوروبيين.

في تاريخ القرصنة، يفرق الباحثون بين نوعين منها، حرة وتفويضية. في الثانية تفوّض دولة ما ناشطين فيها بممارستها نيابة عنها. بدأ الإخوة بربروس مسيرتهم بسفينتين حربيتين من إهداء الأمير العثماني أحمد قورقود ابن السلطان بايزيد الثاني لعروج، و"وصّاه أن يبحر غربا لينظر في أوضاع المسلمين الذين يُضطهدون من الإسبان في الأندلس"!

مجرّد فبركة ذاتية لخيرالدين، فلم يفعل سوى القرصنة التجارية واسترقاق ما قدّرته دائرة المعارف البريطانية بمليون إنسان، غالبيتهم أوروبيون، وبينهم عشرات الآلاف من المسلمين، وفق تقلبات مصالح الأستانة. فحسب وصف المؤرخ بيتر إيرل كان "افتراسا بحريا متبادلا، أساطيل تنهب بعضها البعض". وعلى مياه المتوسط، تقاطعت تحالفات رافعي شعار "الجهاد البحري" مع "الكفار"، كما تم توصيفهم، ووصف "الكفار" وفق القاموس العثماني وقتها شمل مصر والشام ودولا عربية أخرى، كتبرير لاحتلالها.

روايات متضاربة

مع تقاتل ابني بايزيد الثاني، قورقود وسليم على عرش الأب المتوفى عام 1512، ومع تغلب الثاني، منع الإبحار في مياه الأناضول وموانيها، ليحمي حكمه الوليد من قراصنة أخيه المهزوم. هرب الأشقاء بربروس ثانية إلى حماية الدولة الحفصية في تونس التي كانت تحكم شرق الجزائر(1513 – 1514)، فسمحت لهم باتخاذ ميناء حلق الوادي مركزا مقابل ثمن الغنائم.

بالتزامن، غرقت الدولة الزيانية التي تحكم غرب الجزائر في الفوضى، والإسبان يهيمنون على أغلب الموانئ. حاول الإخوة احتلال موطئ قدم لهم على شاطئ الجزائر ليستقلوا عن تبعية تونس، وبعد ثلاث محاولات فاشلة نجحت الرابعة عام 1516 في احتلال "جيجل". رفضوا عرض الملك الحفصي محمد المتوكل بالحماية من الإسبان وأرسلوا وفدا لنيل رضا سليم، مارس 1516، عارضين تبعية إمارتهم الجزائرية لعرشه، فرحب ودعمهم بسفن حربية وذخائر وأموال وبغطاء سياسي، لكنه لم يتدخل لإنقاذ إمارتهم حين أعاد الإسبان احتلالها بعد عامين، مستغلين ثورة مدن جزائرية عديدة على البطش التركي.

> فتحي باشاغا وزير داخلية الوفاق الليبية وإخوانه يذكّرون بخيرالدين بربروس وإخوته، كلاهما ذراع لقراصنة العثمانيين، قدامى وجددا

قتل عروج وعاد خيرالدين للأناضول، ولحسابها احتل رودس سنة 1522، وأعاد احتلال الجزائر عام 1529، وأكمل انقلابه على الدولة الحفصية، التي آوته خلال أعوام غضب سليم عليه، محتلا تونس سنة 1531.

تقدم المرويات التركية قراصنتها كحالة "جهادية صرفة، مجاهدين" يتفوقون في طهرهم على صحابة الرسول! لم تورد، مثلا، ما وثقه الباحث الجزائري محمد الميلي في الجزء الثالث من كتابه "تاريخ الجزائر القديم والحديث"، من أن الشيخ سالم التومي الذي دعا الترك كمسلمين منقذين لمسلمين، ذبحه عروج بيديه في حمام منزله وسط صراخ حريمه وأطفاله، وخرج معلنا نفسه سلطانا. نفس ما فعله حرفيا مع أبي زيان الثالث في تلمسان، وغيرهما. ومع "الفتح" الثاني للجزائر، دشن شقيقه خيرالدين وخلفاؤه، سلاسل مذابح طالت آلافا من الجزائريين، كما فعل مواطنوه الترك بالتوانسة والليبيين.

يذكرنا فتحي باشاغا وإخوانه بخيرالدين بربروس وإخوته، كلاهما ذراع لقراصنة العثمانيين.. قدامى وجددا.

ليبيا.. عندما تُفلسف غزوات عثمانية جديدة
ص13

ذراع أردوغان في ليبيا